

الحجاج والمغالطة في أدب المناظرة (مناظرة الحيدة والاعتذار أنموذجاً)

أ. مراد لثيمي
جامعة بومرداس

أولاً. مناظرة الحيدة كأنموذج للممارسة الخطابية في التراث العربي: تُعدّ مناظرة الحيدة والاعتذار التي دارت بين الإمام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكناني المكي¹ وبشير بن غياث المريسي² حول قضية خلق القرآن الكريم في مجلس المأمون الخليفة العباسي، من أشهر المناظرات في التاريخ الإسلامي وأكثرها اثارة للاهتمام، رغم أنّها لم تتل من الدراسة ما هي حقيقة به. وهي مناظرة حجاجية دارت بين قطبين من الفكر العربي الإسلامي، يمثل كلّ واحد منهما منظومة فكرية تختلف عن المنظومة الفكرية التي ينتمي إليها الآخر، حيث يمثل الكناني المنظومة المعرفية المتعلقة باللسان العربي، ومنهج علم الكلام البرهاني الحجاجي القرآني، أمّا بشر فيمثل المنظومة المعرفية العرفانية المرتبطة بالتأويل الباطني والتصوف والاستشراق. ما يجعل الخلاف واضحاً في الخلفيات الفلسفية والأسس الفكرية لكلّ واحد منهما. فالصراع بين الكناني وبشر هو صراع منظومات فكرية تجلّى في مناظرات بين أشخاص. والاختلاف في الأسس الفكرية يستلزم الاختلاف في المذاهب العقديّة، فكان الكناني سنيّ المذهب يؤمن بكفاية النصّ القرآني، ودور العقل فيه للإضاءة والاستنباط، وهو المذهب الذي يقول أنّ القرآن كلام الله تعالى³. أمّا بشر فهو معتزلي المذهب متشبع بالقيم الشيعية، متأثر إلى حدّ كبير بالفلسفة الفارسية، والعقائد الإلحادية القديمة⁴، التي حاول أن يجد لها إسقاطات على الدين والعقيدة الإسلاميين. وبحثنا هذا سيكون محاولة لاستنباط

الاستراتيجيات الحجاجية، الموظفة من طرف المتناظرين، وكذا السفسة في الحجاج أو الحجاج المغالط.

ثانيا. الاستراتيجيات الحجاجية في أدب المناظرة ودور الكفاءة اللغوية:

أ. الاستراتيجيات التمهيدية للمناظرة:

1. استراتيجية تجريح الشخص: ويكون بإبراز عيب من عيوب الخصم الخلقية الخلقية أو الفكرية⁵، وقد لجأ أحد أنصار المعتزلة إلى هذه الحجة، حتى يؤثر على مشاعر المأمون، ويقضي ببطلان مقالة الخصم، قبل بداية المناظرة، حيث سمع عبد العزيز الكناني أحد الحضور يقول للمأمون: «يا أمير المأمون يكفك من كلام هذا قبح وجهه، فوالله ما رأيت خلقا لله أقبح وجهها منه»⁶.

2. الحجاج بالمثل: يستعمل المثل كحالة ملموسة⁷ لإثبات أطروحة أو تفنيد أطروحة الخصم⁸، ويكون بضرب مثل للقضية المراد إثباتها، فهو يضم تجارب الشعوب وخبراتها المتركمة عبر مسيرتها التاريخية، مما يجعل منها منظومة من المعتقدات المشتركة بين أفراد الجماعة⁹. فكي يبطل الكناني دعوة أحد جلساء المأمون بمعاينة الكناني قبل سماع مقالته، استعمل حجة من القرآن، وأخرى من العيان لذلك. فكان المثل من القرآن الكريم، قصة سيدنا يوسف عليه السلام، الذي سجن واضطهد، رغم حسنه وجماله وأخرج من السجن لما علم بعلمه وحكمته حيث قال: «يا أمير المؤمنين فوالله ما أعطي يوسف على حسن وجهه جرادتين ولقد سجن وضيق عليه ... فكان ما بلغه يوسف كله من علمه»¹⁰. أما المثل من العيان فكان، بعيب المأمون صانع الجبس، وعدم عيبه على الجبس، لما رأى فيه انتفاخا، حيث قال المأمون: «العيب لا على الشيء المصنوع إنما العيب على صانعه»¹¹. وردّ عليه الكناني، بقوله: «فهذا يعيب ربي لم خلقتي قبيحا»¹². وهي حجة تمهيدية وظفها الكناني ليقوّي من مركزه أمام المأمون، قبل بداية المناظرة.

ب. الاستراتيجيات الحجاجية في المناظرة: تنقسم مناظرة "الحيدة" في سيرها

إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: كان التحاجج فيه بين المتناظرين بنص التنزيل، دون تأويل أو تفسير، إنما بالتلاوة فحسب، وهذا بطلب من الكناني: «فقلت يا أمير المؤمنين، كلّ متناظرين على غير أصل يكون بينهما يرجعان إليه إذا اختلفا في شيء من الفروع فهما كالسائر على غير طريق»¹³. «قلت بنص القرآن بالتلاوة»¹⁴. ففي هذا القسم يستضيء العقل بالنص، فيكون هذا الأخير هو الأداة المركزية، التي يعمل داخلها العقل، ليبرر هذا الأخير شرعيته، حيث يكون في هذا القسم حضور العقل قويا لكنه حضور غياب كونه يظهر من خلال ما يسمح به النص، ويبدو أنه تحت سلطته، لذلك نجد العقل يأتي بالفكرة ويدعمها بالنص، أو يبحث عن الفكرة ويدعمها بالنص، أو يبحث عن الفكرة في النص.

أمّا القسم الثاني: يتحول التحاجج بالنص والتلاوة إلى التحاجج بالنظر والقياس وقد كان ذلك بطلب من بشر، وقبول الكناني، الذي أفحم هذا الأخير، فقال بشر: «يا أمير المؤمنين عندي أشياء كثيرة إلاّ أنّه يقول بنص التنزيل، وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مناظرتي بنص التنزيل وليناظرني بغيره»¹⁵. وهي المرحلة التي تنقلب فيه المعادلة، ويصبح النصّ هو الذي يستضيء بالعقل، فيعمل النص داخل إطار العقل، ويكون هذا الأخير أداة لإثبات ما هو موجود في النص.

1. الاستضاءة بالنص:

1. الحجاج بالبرهان ذي الحدين: وهو البرهان الذي يجبر الخصم على اختيار أحد احتمالين، كلاهما ليس في صالحه¹⁶. فلكي يضع بشر خصمه في مأزق ربط هذه الحجة باستفهام يلزمه أحد الخيارين، كلّ خيار ليس في صالحه، ومحتوى الاستفهام: هل القرآن شيء أم غير شيء؟

حيث قال بشر: «تقول يا عبد العزيز القرآن شيء أم غير شيء؟ فإن قلت شيء فقد أقررت أنّه مخلوق، إذ كانت الأشياء كلّها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت أنّه ليس بشيء فقد كفرت، لأنك تزعم أنّ حجة الله على خلقه ليس بشيء»¹⁷. وقد وظف الكناني هذه الاستراتيجية مرّة أخرى لما أصّر بشر على أنّ (كلّ) لفظة

تجمع الأشياء جميعها، حيث عرض عليه الكفائي مجموعة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ سورة البقرة، الآية 255 وقوله: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ سورة النساء، الآية 166 وقوله: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ سورة هود، الآية 14 وقوله: ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ سورة فاطر، الآية 11.

ثم سأله هل يقرّ أن الله تعالى علما كما أخبر عن نفسه؟ ممّا جعل بشر في حرج فإن قال ليس الله تعالى علما، يكون قد خالف نص القرآن ويثبت ضلاله، وإن أقرّ أنّ الله تعالى علما، يكون قد جعل علم الله داخلا في هذه الأشياء المخلوقة، لأنّ حسب (كلّ) لفظة تجمع الأشياء جميعا، ممّا جعله يحيد عن الجواب، ويقول أنّ الله تعالى لا يجهل، وهو جواب لا يتلاءم مع السؤال¹⁸، قال الكفائي: «إذا أقرّ أنّ الله علما سألته عن علم الله هل هو داخل في الأشياء المخلوقة حين احتج بقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ سورة الرعد، الآية 16، وزعم أنّه لم يبق شيء إلا وقد أتى عليه هذا الخبر، فإن قال علم الله داخل في الأشياء المخلوقة فقد شبه الله بخلقه الذين أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، وكلّ من تقدم قبل علمه فقد دخل عليه الجهل، فيما بين وجوده إلى حدوث علمه، وهذه صفة المخلوقين، والله أعظم وأجلّ أن يوصف بذلك أو ينسب إليه، ومن قال ذلك فقد كفر وحلّ دمه، ووجب على المؤمنين قتله، وإن قال إن علم الله خارج عن جملة الأشياء المخلوقة وغير ذلك داخل فيها، فقد رجع عن قوله وأكذب نفسه¹⁹.

2. استراتيجية الأشباه: يخضع الأشباه إلى نفس المعالجة أو إلى معالجة مماثلة²⁰. لذلك عمد الكفائي إلى هذه الحجة عندما اتهمه بشر بأنّه أتى بأشياء متباينات وادعى أنّ الله تعالى خلق بها الأشياء، فوضّح أنّ هذه الأشياء مسميات لمسمى واحد، كما أنّ الله تعالى واحد وسمى نفسه بأسماء عديدة، حيث قال الكفائي: هذه أربعة أشياء لشيء واحد، لأنّ كلام الله هو قوله وقول الله هو كلامه وأمر الله هو كلامه وكلام الله هو أمره وكلام الله هو الحق والحق هو كلام الله

فهذه أسماء لكلام الله وقد قدمت ذكر هذا فقلت: «إنّ الله سمي كلامه نورا وهدى وشفاء ورحمة وفرقانا وبرهانا وسماه الحق، وهذه أشياء شتى لشيء واحد هو كلام الله، كما سمي نفسه بأسماء كثيرة وهو واحد صمد فرد»²¹.

3. الحجاج باللّغة: لما قال بشر: «قال تعالى الله خالق كل شيء». فهذه لفظة لم تدع شيئا إلا أدخلته في الخلق ولا يخرج عنها شيء ينسب إلى الشيء²². ردّ عليه الكناني بحجة من القرآن تثبت أنّ (كلّ) لا تشمل جميع الأشياء في الحكم عند استعمالها، قال تعالى في: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ سورة الأحقاف، الآية 25. وقال: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ سورة الأحقاف، الآية 25. فقد بينّ تعالى أنّ مساكن الأقوام التي دمرهم تعالى لم تدخل تحت كلّ في الآية الأولى، ولم تشملها. وقد قال تعالى في قصة بلقيس: ﴿أوتيت من كل شيء﴾ سورة النمل الآية 23، والثابت أنّ النبي سليمان عليه السلام أوتي كمثل ملك بلقيس ألف مرّة مما يدل على أنّ كلّ في الآية لم تشمل الأشياء جميعها، لأنّها لم تشمل ملك النبي سليمان.

4. الحجاج بالاستقراء: والاستقراء تتبّع مجموعة من العناصر للوصول إلى حكم وتعميمه على العناصر الأخرى²³. لما حاد بشر عن إجابة الكناني عن علم الله تعالى، وقال أنّه لا يجهل، ورفض الإقرار أنّ له علما، بينّ له باستقراء مجموعة من الآيات أنّ نفي الجهل لا يثبت العلم، رغم أنّ إثبات العلم ينفي الجهل والمولى تعالى لم يمدح أحدا من ملائكته أو رسله أو عباده المنقذين بنفي الجهل عنهم، إنّما مدحهم أجمعين بالعلم، فقد مدح تعالى ملائكته بقوله: ﴿كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ سورة الانفطار، الآية 11، وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ سورة التوبة الآية 43، وقال جلّ وعلا في مدحه للمؤمنين: ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾ سورة فاطر، الآية 28. فعن طريق استقراء هذه الأمثلة من القرآن بينّ الكناني أنّ إثبات العلم لا يكون بنفي الجهل.

ومن الحجاج بالاستقراء - لكن دون تعميم - أي استقراء قرائن مرتبطة بحكم في ذاته، ما قام به الكناني للتدليل على نهي الخوض في علم الله تعالى أو ادعاء معرفته، حين سأله بشر: «قد زعمت يا عبد العزيز أن الله علما لأي شيء هو علم الله، وما معنى علم الله؟»²⁴.

حيث ساق الكناني مجموعة من الآيات التي تدل على بطلان ادعاء معرفة علم الله تعالى والنهي عن ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من عمله إلا بما شاء﴾ سورة البقرة، الآية 255، وقاله: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾ سورة الجن، الآية 26، وقاله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البرّ والبحر﴾ سورة الأنعام، الآية 59، وقاله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمدده من سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ سورة لقمان، الآية 27، وقال: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادا﴾ سورة الكهف الآية 109، وقال: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ سورة لقمان، الآية 34، وقد جاء في القرآن قول الملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ سورة البقرة، الآية 32، ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة تلا قوله جلّ وعلا: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ سورة لقمان، الآية 34. فباستقراء نص التنزيل تبين أن علمه تعالى مما اختص هو بمعرفته وحجبه عن خلقه جميعا حتى المقربين منهم.

5. الحجاج بافتراض مسألة مشابهة للمسألة المتناظر عليها: لما رفض بشر الإقرار بحرمة ادعاء معرفة علم الله تعالى، افتراض مسألة علّه يجعل بها الكناني في حرج، مفاد المسألة أن اثنين تنازعا في علم الله، وقد حلف أحدهما أن علم الله هو الله وحلف الآخر أن علم الله غير الله. وسأل الكناني عن جوابه في المسألة إذا

استفتياه. فردّ عليه الكناني بافتراض ثلاث مسائل أخرى، ليقبس مسألة بشر على حكم مسأله، ومفادها كالآتي:

مسألة 01: أن ثلاثة أفراد تنازعوا في الكوكب الذي أخبر الله أن إبراهيم - عليه السلام - رآه، فحلف أحدهم أنه المشتري، وحلف الثاني أنه الزهرة، وحلف الثالث أنه المريخ²⁵.

مسألة 02: ثلاثة أفراد تنازعوا في الأقلام التي أخبر تعالى عنها في قضية كفالة مريم، فحلف أحدهم أنها من نحاس وحلف الثاني أنها من فضة، وحلف الثالث أنها من خشب.

مسألة 03: ثلاثة أفراد تنازعوا في المؤذن الذي أخبر الله تعالى عنه في قوله جلّ وعلا: ﴿فَأَذِّنْ مُؤذِنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ سورة الأعراف الآية 44، فحلف الأول أن المؤذن من الإنس، وحلف الثاني أنه من الجن، وحلف الثالث أنه من الملائكة. فلما صحّ أن يسكت المرء عن سؤال هؤلاء في المسائل الثلاث لأنّ المولى تعالى لم ينزل بها من علم وجعلها في غيبه، صحّ أن يسكت المرء عن مسألة السائلين التي افترضها بشر لأنها تنطوي على نفس الحكم مع ما افترضه الكناني.

6. الاستدراج: جعل المناظر خصمه يوافق على مسألة تستلزم مسألة أخرى تبطل دعواه. حيث جعل الكناني بشرا يوافق على أن الله تعالى نفسا، كي يبطل ادعائه أن (كلّ) تشمل الأشياء جميعا. فبعد إقرار بشر أن الله تعالى نفسا وهذا وارد في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ سورة المائدة، الآية 116، مما يلزمه أن يقرّ أن (كلّ) في الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ سورة آل عمران الآية 185، لا تشمل نفس الله تعالى، وهذا يستلزم بطلان قوله أن كلّ في الآية ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾²⁶، تشمل الأشياء جميعها بما فيها القرآن الكريم.

7. استراتيجية المداخل اللغوية: ويكون باعتماد المداخل اللغوية في إثبات مسألة ما، واستثمار القواعد النحوية والبلاغية لتأكيدھا، وهي طريقة درج عليها

العلماء وأهل النظر من العارفين باللّغة، لإثبات مزية أحدهم على غيره،²⁷ فلمّا أدرك الكِنائي جهل بشر بالقواعد النحوية، والمداخل اللّغوية، أوقعه في مسائل لغوية جعله يتخبط فيها، وليظهر ذلك جعله ينتقل معه في آيات القرآن الكريم ويعرض عليه النصوص التي يستدل بها بشر دون العودة إلى عرف العرب ولغاتهم. ومن بين المسائل التي أظهر بها الكِنائي تفوقه على بشر، قضية العام والخاص في أحكام النص القرآني، وقد بسطها الكِنائي بسطا منهجيا مشفوعا بالآيات الواضحة.

1- خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص: ويظهر في قوله تعالى: ﴿إني خالق بشرًا من طين﴾²⁸، وقوله تعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ سورة آل عمران، الآية 59، فلمّا قال تعالى: ﴿يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ سورة الحجرات، الآية 13، أدرك المؤمنون أنّه تعالى لم يعن في هذه الآية آدم وعيسى، لأنّه قدّم خبرهما²⁹.

2- خبر مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص: ويظهر في قوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾ سورة الأعراف، الآية 156، حيث أدرك المؤمنون أنّ رحمة تعالى لم يلعن بها إبليس، لأنّه تقدّم فيه من الخبر الخاص ما يدل على لعنه، وهو قوله تعالى: ﴿لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ سورة ص، الآية 85، حيث صار ذلك الخبر العام خاصا لخروج إبليس ومن تبعه من رحمة الله تعالى.

3- خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى العموم: ويظهر في قوله تعالى: ﴿وأنّه هو ربّ الشعرى﴾ سورة النجم، الآية 49، فقد كان مخرج الخبر خاصا لكنه يدل على العموم، فعلم المؤمنون أنّه تعالى رب كلّ شيء.

4- خبر مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى العموم: فلما فرغ الكِنائي من شرح كلّ ذلك، وعقله المأمون ومن حضر المجلس ممن كانت له القدرة على التتبع، بيّن أنّ في قوله تعالى: ﴿خالق كلّ شيء﴾، لم تشمل (كلّ) في هذه الآية

الأشياء جميعها، وقد عقل المؤمنون ذلك لما تقدم من خبر في قول تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ سورة النحل، الآية 40، حيث فرّق تعالى بين الشيء المخلوق والقول الذي يكون به الخلق³⁰، مما جعل القول خارجاً عن الخلق.

8. المحاصرة: وهي الحجة التي تحاصر الخصم في وضعية يستحيل حلّها منطقيًا، ممّا يدفعه إلى قبول نتيجة الاستدلال. فلما أُصرّ بشرّ على القول بخلق القرآن واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، مدّعياً أنّ جعلناه بمعنى خلقناه، فالجعل حسب ترادف الخلق في هذه الآية، وفي القرآن كلّهُ³¹، حيث قال بشرّ: «هل في الخلق أحد يشك في هذا أو يخالف عليه، إن معنى (جعلناه) خلقناه»، وقد ساق الكُناني مجموعة من الآيات التي تبطل مقالة بشرّ، وتجعله لا يستطيع أن يواصل دعواه والدفاع عنها منطقيًا، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَتَّقُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ سورة النحل، الآية 91. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ﴾ سورة النحل الآية 57. وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية 224. مما جعل بشرّا في مأزق، فلو أُصرّ على دعواه كان عليه الإقرار أنّ جعلتم الله بمعنى خلقتم الله، ويجعلون الله بمعنى يخلقون الله، ولا تجعلوا الله بمعنى لا تخلقوا الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

9. التوكيد: وهي الحجّة التي يسعى من خلالها المناظر إلى توكيد قضية، قد تمكن من إثباتها بالحجة، فلما فرغ الكُناني من بسط بعض الآيات التي وردت فيها لفظة (جعل) بمعنى غير الخلق، وتبين بطلان مقالة بشرّ بشهادة المأمون طلب الكُناني من هذا الأخير أن يسمح له ببسط آيات أخرى تؤكد بطلان مقالة بشرّ³². ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ سورة إبراهيم، الآية 30، وقوله: ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ﴾ سورة الأنعام، الآية 100 وقوله: ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُومًا﴾ سورة الرعد، الآية 33 وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾

صالحا جعلاه شركاء فيما أتاهما ﴿ سورة الأعراف، الآية 190، وقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ سورة الزخرف، الآية 19، وقوله: ﴿على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ سورة الحجر، الآية 91، وقوله: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾ سورة الأنعام، الآية 91. لو كان لفظ (جعل) بمعنى خلق في سائر القرآن كما ادعى بشر، لكان قوله تعالى: جعلوا الله أندادا بمعنى خلقوا الله أندادا. وقوله وجعلوا الله شركاء بمعنى خلقوا الله شركاء. وقوله جعلاه شركاء بمعنى خلقاه شركاء. وقوله: وجعلوا الملائكة، بمعنى خلقوا الملائكة وقوله: جعلوا القرآن بمعنى خلقوا القرآن. وقوله تجعلونه قراطيس بمعنى تخلقونه قراطيس. فما أعظمها فرية على الله تعالى وعلى كتابه العزيز، مما جعل بشرا في مأزق، ومحاصرا بكم من الآيات التي يستحيل تأويلها على النحو الذي أراد.

10. حجة الفصل بين المتبسين: وهي حجة تتبني على الفصل بين شيتين مختلفين يعبر عنهما بلفظ واحد، ويدرك معناهما من السياق. فلما حاول بشر أن يصير على أن (جعل) تأتي دائما بمعنى خلق، وأبطل الكناني ادعاءه بنص التنزيل في آيات كثيرة، انتقل الكناني إلى رفع اللبس الذي حاول بشر أن يروجه، عن طريق الفصل بين (جعل) التي تحتل معنى خلق، و(جعل) التي تحتل معنى صير: حيث قال الكناني: « يا أمير المؤمنين إن جعل في كتاب الله يحتل عند العرب، معنيين، معنى خلق، ومعنى صير »³³.

1- الجعل الذي بمعنى خلق: يكون في القول المفصل، الذي تفهم فيه اللفظة في ذاتها دون ربطها بما يليها من القول، قال الكناني: «فأما جعل الذي هو على معنى، خلق، فإن الله عز وجل جعله من القول المفصل، فأنزل القرآن به مفصلا وهو بين لقوم يفقهون، والقول المفصل يستغني السامع إذا أخبر به عن أن توصل له الكلمة بغيرها من الكلام، وإذ كانت قائمة بذاتها على معناها»³⁴. وقد ساق الكناني في ذلك عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات

والأرض وجعل الظلمات والنور ﴿ سورة الأنعام، الآية 1. وقوله: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ سورة النحل، الآية 72. وقوله: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ سورة السجدة، الآية 09. حيث عقلت العرب أن جعل في هذه الآيات بمعنى خلق، لأنه جاء من القول المفصل الذي يفهم في ذاته دون وصله بما بعده فسواء قال تعالى جعل أو قال خلق فهم العرب أنه بنفس المعنى.

2- الجعل الذي بمعنى صير: يكون في القول الموصل، الذي لا يظهر إلا إذا وصلت فيه الكلمة بما بعدها، حيث يقول الكناني: «وأمّا جعل الذي هو على معنى التصيير لا معنى الخلق فإنّ الله تعالى أنزله من القول الموصل الذي لا يدري المخاطب به حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها فيعلم ما أراد بها، وإن تركها مفصولة لم يصلها بغيرها من الكلام لم يفهم السامع لها ما يعنى بها، ولم يقف على ما أراد بها»³⁵. من الآيات التي استدلّ بها الكناني على ذلك قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ سورة ص، الآية 26. وقوله: ﴿وجاعلوه من المرسلين﴾ سورة القصص، الآية 07، وقوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ سورة البقرة الآية 128، ففي هذه الآيات لا يستطيع السامع أن يفهم معنى جعل إلا إذا ربطها بما بعدها، حيث فهم داود ما خاطبه به تعالى لما وصل جعل بخليفة وعقلت أم موسى ما أراد تعالى، لمّا وصلته بالمرسلين، وعقل السامع ما أراد تعالى بقوله (واجعلنا) لمّا وصله بمسلمين.

11. الحجاج بالاستقراء: لمّا حاول بشر أن يشبّه على المأمون والحضور بإدعائه أنّ الكناني حطّ من قيمة القرآن لمّا قال أنّه مفصل وموصل، ردّ عليه الكناني باستقراء مجموعة من الآيات التي تبطل ادعاء بشر³⁶. ومن الآيات التي جاءت في القول الموصل قوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ سورة القصص، الآية 51. وقوله: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ سورة الرعد، الآية 21، وقوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾

سورة البقرة، الآية 27. أمّا الآيات التي جاءت في القول المفصل، فمنه قوله تعالى: ﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ سورة هود الآية 01، وقوله: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا﴾ سورة فصلت، الآية 02، وقوله: ﴿وقد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ سورة الأنعام الآية 98. وبعد استقراء هذه الآيات وغيرها من القرآن التي تدل على أنه تعالى سمى القرآن موصلا ومفصلا، وقد امتدح من وصل ما أمر الله به أن يوصل، وذم من قطعه. تبيّن بطلان ادعاء بشر في المسألة.

12. الحجاج بالقياس: القياس هو الرّبط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما³⁷. فلما ادعى بشر أنّ المولى تعالى لم يُلزم العجم بلغة العرب، ولم يجعل تعلمها عبادة له، ردّ عليه الكِنائي ونقض دعواه من جانبين³⁸ الجانب الأول هو أنّ الذي يجهل لغة العرب ما من حق له أن يتأوّل القرآن، لأنّ الذي يفسر القرآن هو الذي يعقل لغته، أمّا الجانب الثاني، فإنّ معرفة الموصل والمفصل عبادة لله تعالى، لأنّ معرفته تفتح العقول لفهمه.

وفيما يخص الجانب الأول وهو التقرُّول على الله تعالى عن جهل بلغة العرب ولغة القرآن، فقد ساق الكِنائي لذلك مجموعة من الآيات التي تنهى النبيين عن القول عن الله تعالى بغير علم ومن ذلك قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم:- ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ سورة الإسراء، الآية 36، وقال نوح -عليه السلام:- ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ سورة هود، الآية 46 فقد نهى المولى تعالى أنبياءه وهم من أشرف خلقه عن قول ما ليس لهم به علم بما بالك بغيرهم من العباد، وهي نتيجة يصل إليها الإنسان عن طريق قياس حكم الآية على الأنبياء على غيرهم من الناس.

13. الحجاج بالتوكيد: بعد أن فرغ الكِنائي من بسط الحجج الدالة على تعبد الخلق لله تعالى بمعرفة الموصل والمفصل من القرآن، وإقرار المأمون بذلك³⁹ بقي بشر في تعنته، ورفضه قبول الحق رغم بيانه، وبقي يطالب الكِنائي بتوضيح

ذلك، ولكي يؤكد الكناني دعواه زاد على ما ذكره، بمجموعة من الآيات التي تحقق ذلك.

1- آيات الوصل: وهي الآيات التي تقرأ بالوصل، فإن قرأها القارئ بالقطع متعمداً، يكون كافراً لما يتغير من معناها، ومنه قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ سورة آل عمران، الآية 18، وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ سورة البقرة، الآية 255، وقوله: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضه فما فوقها﴾ سورة البقرة، الآية 62، وقوله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ سورة الأنعام، الآية 49. فلو توقف القارئ في الآيتين الأوليتين في قوله تعالى (لا إله) وتوقف في الآية الثالثة في قوله (لا يستحي)، وتوقف في الآية الرابعة في قوله (لا يعلمها)، لتغير معنى الآيات، فنفي عن الله تعالى الربوبية والاستحياء والعلم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

2- آيات الفصل: وهي الآيات التي تقرأ بالفصل، فإن قرأها القارئ بالوصل متعمداً، يكون كافراً لما يتغير من معناها، ومنه قوله تعالى: ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء، والله المثل الأعلى﴾ سورة النحل، الآية 60. وقوله: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا﴾ سورة التوبة، الآية 40. فلو وصل القارئ قوله تعالى: ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ بقوله (ولله) وقطع الكلام، ووصل قوله تعالى: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ بقوله (وكلمة الله) وقطع، معتمداً جعل الله مثل السوء وكلمته السفلى، وما أعظمها فرية على المولى تعالى.

14. الحجاج بالشاهد: يتميز الشاهد في الثقافة العربية بسلطة حجاجية خولتها له طبيعة الفكر العربي، خاصة الشاهد الشعري الذي غلب على غيره من أنواع الشواهد، ولما دخل العرب في الإسلام أصبحت الشواهد الدينية على رأسها القرآن الكريم أكثر النصوص مقبولة من حيث الاستشهاد، فالاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القادة الخالدين في نظر الجماعة المقصودة، لأن قيمة الشخص المعترف بها سالفاً من قبل السامعين

يمكن اعتبارها مقدمة حجاجية⁴⁰. ولما فطن الكنانى لهذه القضية قام بعرض بعض الشواهد الشعرية، إلى جانب كثير من الشواهد القرآنية، ليكسب موقفه قوة ويثبت مزيته على بشر وهو فارق مهم بالنسبة للثقافة العربية. من بين هذه الشواهد قول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ولا تبعديني عن خباك المحلل

15. استراتيجية التكرار: يلعب التكرار دورا مهما في إقناع المخاطب بفكرة ما وذلك بإعادة تلك الفكرة صراحة، أو بملفوظ ينوب عنها، حتى لا يحس المخاطب بثقله، هذا لكون الإنسان يرتاب من الفكرة التي تلقى له أول الأمر، بيد أن التكرار يجعله يقبلها، خاصة إذا طرحت عليه بأشكال مختلفة، لهذا تقول الباحثة سامية الدريدي: "التكرار يساعد أولا على التبليغ والإفهام ويعين المتكلم ثانيا على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان فإذا ردد المحتج لفكرة حجة ما أدركت مراميها وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي، وإن ردد رابطا حجاجيا أقام تناغما بيّنا بين أجزاء الخطاب وأكد الوحدة بين الأقسام"⁴¹. وقد وظفت أنواع عديدة من التكرار من طرف المتناظرين، حسب حاجة كل واحد منهما ليجعل الحضور يقنتع بانسجام خطابه.

16. الحجاج بالصورة البيانية: تعتبر الصورة البيانية على اختلاف أنواعها من الأدوات الحجاجية التي يوظفها الناس لتدعيم أفكارهم وإقناع مخاطبيهم بتوضيحها. فمن وظائف المجاز الحجاجية التي اقترنت بفكرة الاستبدال تجسيد المعاني وجعلها مرئية مشاهدة وجعل حضورها في السامع أقوى ووقعها عليها أشد⁴². فبنية الصورة البلاغية تجعل هذه الأخيرة تجذب السامع وتحرك خياله لاستيعاب الأفكار المقدمة إليه⁴³.

17. استراتيجية الاستفهام الحجاجي: إن هذا النوع من الاستفهام لا يعتبر سؤالاً حقيقياً، بل يستخدم كأداة حجاجية للتدليل. فهو يحلّ محلّ جملة خبرية تكون منفية⁴⁴.

2. الاستضاءة بالعقل: بعد فشل بشر في إثبات إدعائه بخلق القرآن الكريم وبيان الحجة عليه بنص التنزيل دون تفسير أو تأويل. ادعى أنّ له من الحجج ما يدحض به ادعاء الكناني، لكن بالنظر والقياس، وطالب بشر أن يدع الكناني مناظرته بنص التنزيل وينظره بالنظر والقياس، حيث قال بشر: "يا أمير المؤمنين عندي أشياء كثيرة، إلّا أنّه يقول بنص التنزيل وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مناظرتي بنص التنزيل وليناظرني بغيره"⁴⁵. رغم أنّ المأمون عارض ذلك معتبراً إياه ممّا لا يجوز، بيد أنّ الكناني طلب الإذن من المأمون بالسماح لهما للتناظر بالقياس والنظر والاحتكام إليهما. وفي هذا الفصل من المناظرة، يتغيّر الأصل الذي يتم الاحتكام إليه، حيث كان الاحتكام في الفصل الأول من المناظرة إلى نص التنزيل دون تأويل أو تفسير، أمّا في هذا الفصل وهو الفصل الثاني من المناظرة فقد أصبح الاحتكام إلى النظر والقياس، وهذا الفصل بدوره ينقسم إلى شقين، كان التناظر في الشقّ الأول بالنظر، أما الشقّ الثاني فكان التناظر فيه بالقياس.

2.1 - استراتيجيات الحجاج بالنظر:

1. استراتيجية الحصر: سأل الكناني بشراً سؤالاً يحتمل ثلاثة أجوبة، كلّ جواب يضع بشراً في مأزق منطقي، ممّا جعله يحيد عن الإجابة. حيث قال الكناني: يا بشر تقول إنّ كلام الله مخلوق؟ ثمّ أضاف: يلزمك في قولك هذا واحدة من ثلاث أن تقول إنّ الله خلق كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره أو خلقه قائماً بنفسه وذاته فقل ما عندك⁴⁶.

2. استراتيجية البيان: وهي الحجة التي يستعملها أحد المناظرين لبيان لبس أو توضيح مسألة، تؤكد مذهبه. فبعد أن حاد بشر عن إجابة الكناني، طلب المأمون

من الكناني توضيح مسألة ما يستلزم عن القول بخلق القرآن من جهة النظر
وفصل الكناني ذلك كما يلي:

(1) "إن قال: إنَّ الله خلق كلامه في نفسه، فهذا محال باطل لا يجد السبيل
إلى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول، لأنَّ الله لا يكون مكانا للحوادث، ولا
يكون فيه شيء مخلوق ولا يكون ناقصا فيزيد بشيء إذا خلقه، ومن قال هذا فقد
كفر بالله العظيم"⁴⁷.

(2) "إن قال: خلق كلامه في غيره، فذا أيضا محال باطل لا يجد السبيل إلى
القول به من قياس ولا نظر ولا معقول لظهور الشناعة والكفر من قبله، لأنَّه يلزم
قائل هذه المقالة في القياس والنظر المعقول أن يجعل كلَّ كلام خلقه الله في غيره
هو كلام الله، فيجعل الشعر وقول الزور والفحش والخنا، وكلَّ كلام ذمه الله وذمَّ
قائله من الكفر والسحر وغيره لله، تعالى الله عن ذلك"⁴⁸.

(3) "إن قال: خلق كلامه قائما بنفسه وذاته، فهذا هو المحال الباطل الذي لا
يجد السبيل إلى القول به لا من قياس ولا نظر ولا معقول لأنَّه لا يكون الكلام إلاّ
من متكلم كما لا تكون الإرادة إلاّ من مريد، ولا علم، ولا قدرة إلاّ من قدير"⁴⁹.
وبطلان كلام بشر من كلِّ الجهات، ثبت أنَّ الكلام صفة من صفات الله تعالى
وأنَّ القرآن كلامه عزَّ وجلَّ.

3. الاستدراج: في هذه المرّة، قام الكناني بجعل بشر يوافقه على بعض
القضايا ليستدرجه إلى إبطال دعواه، حيث قال الكناني: يا بشر قول إنَّ الله كان
ولا شيء وكان ولم يفعل شيئا، وكان ولم يخلق شيئا؟ فردَّ عليه بشر: نعم هكذا
أقول، فسأله الكناني: بأيّ شيء، حدثت الأشياء بعد أن لم تكن شيئا، حدثت بنفسها
أم الله أحدثها؟ فأجاب بشر بل الله أحدثها، فسأله الكناني: بأيّ شيء أحدثها؟ فقال
بشر بقدرته، فسأل الكناني: تقول لم يزل قادرا؟ قال بشر: كذلك أقول، قال
الكناني: إنَّه لم يزل يفعل؟ فردَّ بشر: لا أقول هذا. فقال الكناني: لا بدَّ أن تقول إنَّه
خلق بالفعل الذي كان عن القدرة، وليس الفعل هو القدرة، لأنَّ القدرة، لأنَّ القدرة

صفة من صفات الله ولا يقال لصفات الله هي الله ولاهي غير الله، وهذا يلزمك القول به⁵⁰. وقد واصل الكناني في شرح المسألة حتى يقف كل من في المجلس على كذب دعوى بشر ومن قال بقوله، حيث قال: قد تبين أن ههنا إرادة ومريدا ومرادا وقولا وقائلا ومقولا له، وقدرة وقديرا ومقدورا عليه، وذلك كله متقدّم قبل الخلق وما كان متقدما قبل الخلق فليس هو من الخلق في شيء. ما يثبت أن صفة الكلام كانت قبل وقوع الفعل.

2.2 استراتيجيات الحجاج بالقياس: بعد عجز بشر عن إجابة الكناني حول خلق الأشياء وبأي شيء حدثت بعد أن لم تكن شيئا. انتقلا إلى التحاجج بالقياس وهي المرحلة الأخيرة التي تنتهي بها مناظرة "الحيدة".

1. الحجاج بافتراض مسألة مشابهة للمسألة المتناظر عليها: افترض الكناني مسألة وعرضها على بشر، وهي أن لبشر غلامان، أحدهما اسمه خالد والآخر يزيد وكان بشر غائبا، وكتب للكناني ثمانية عشر كتابا يقول ادفع هذا الكتاب إلى خالد غلامي، وكتب أربعة وخمسين كتابا وقال ادفع هذا الكتاب إلى يزيد دون أن يذكر (غلامي)، وكتب كتابا وقال ادفع هذا الكتاب إلى خالد غلامي وإلى يزيد ولم يقل (غلامي)⁵¹. وأشهد المأمون على من هو المفرد هل الذي كتب الكتاب ولم يذكر أن يزيد غلامه، أم من تلقى الكتاب ولم يعلم أن يزيد غلام بشر. فأقرّ المأمون أن المفرد هو كاتب الكتاب لأنه لم يصرح أن يزيدا غلامه، رغم أنه صرح في مرات عديدة أن خالدا غلامه. والقياس من هذا أن المولى تعالى أخبر في ثمانية عشر موضعا بخلق الإنسان، فما ذكر الإنسان إلا وأخبر بخلقه، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعا ولم يخبر بخلقه، ولا أشار إليه بشيء من صفات الخلق⁵²، وجمع بين القرآن والإنسان في آية فأخبر بخلق الإنسان ولم يذكر خلق القرآن، وهذا في قوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان﴾ سورة الرحمن، الآيتان 02/01. فهذه الآية قد أثبتت الخلق للإنسان وفتته عن القرآن.

ثالثاً- المغالطة في الحجاج:

1. **الغصب:** قيام أحد المتناظرين بالاستدلال على بطلان دعوى خصمه، قبل أن يسمح له بإقامة الدليل⁵³. وقد وقع بشر في الغصب في مطلع المناظرة، عند طرحه سؤالاً على لکناتي بغية إيقاعه في الحرج حيث سأل وأعطى احتمالين للإجابة دون أن يعطي فرصة للکناتي، لهذا ردّ عليه هذا الأخير قائلاً: «ما رأينا أعجب من هذا تسألني وتجب عن نفسك»⁵⁴، وقد سمي كذلك لأنّ المناظر يغصب حق مناظرة.

2. **المكابرة:** وتكون المنازعة لا لإظهار الحق، ولا لإلزام الخصم، إنّما لإظهار الفضل⁵⁵. وقد وقع بشر في المكابرة بنقض دليل بلا شاهد عندما قال: «ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمع له ولا بد من جواب يعقل ويفهم إنّه شيء أم غير شيء»⁵⁶. كما وقع بشر في المكابرة بعد أن بسط له الکناتي الآيات التي تدل على أنّ كلام الله، هو أمره، وأمره هو قوله، وقوله هو الحق، وأنّها أسماء لشيء واحد وهو الكلام الذي خلقت به الأشياء، وهو غير الأشياء ولا يدخل فيها، وليس كمثلهما. حيث قال: «يا أمير المؤمنين هذا يجب أن يخطب بما لا أسمع ولا أعقله ولا ألتفت إليه وما أتى بحجة ولا أقبل من هذا شيئاً»⁵⁷.

3. **الحيدة:** هي انصراف الخصم عن الإجابة على السؤال الذي يطرحه المناظر ليجيب عن سؤال آخر، عندما يدرك وقوعه في حرج، ووقوعه في مسألة يستحيل حلّها منطقياً. وقد وقع بشر في الحيدة عدّة مرات منها: لمّا حاصره الکناتي ببرهان ذي حدین، يتعلّق بـ(كلّ) هل هي لفظة تجمع الأشياء جميعها أم لا؟ (تمّ شرح ذلك في البرهان ذو حدین)، حيث سأله هل تقرّ أنّ الله تعالى علماً؟، فأجاب بشر إنّ الله تعالى لا يجهل وهذا معنى العلم، فما كان للجواب علاقة له بالسؤال، إنّما اجتلب كلاماً ليشغل المناظر والحضور عن السؤال الحقيقي. حيث قال الکناتي: «أتقر يا بشر أنّ الله علماً كما أخبر، أو تخالف التنزيل»⁵⁸. فأجاب بشر: «الله لا يجهل وهذا معنى العلم»⁵⁹. وليحقّق الکناتي للمأمون أنّ بشراً وقع في الحيدة ضرب له

ثلاثة أمثلة، أحدها من القرآن، والثاني من سنة المسلمين والثالث من كلام العرب فالمثال من القرآن الكريم ضربه بقصة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- لما قال لقومه: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون﴾ سورة الشعراء الآية 73، فأجابوه: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ سورة الشعراء، الآية 74 والمثال من سنة المسلمين، فضربه بقصة عمر بن الخطاب رضي عنه لما رأى معاوية يكاد يتفقأ شحما، فقال لمعاوية ما هذه؟ لعلها من نومة الضحى وردّ الخصوم فقال معاوية: يا أمير المؤمنين علمني وفهمني⁶⁰. أما من كلام العرب فقد ضرب مثلا ببيتين لامرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرري وأرخي زمامه ولا تبعديني عن خباك المحلل⁶¹.

فقوم إبراهيم أجابوا عن غير السؤال الذي طرحه إبراهيم، ومعاوية اجتلب كلاما لا يمت بصلة لسؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأمرؤ القيس حاد عن إجابة محدثته في البيتين وردّ عليها بكلام لا علاقة له بسؤالها. وقد أقرّ المأمون بحيدة بشر بقوله: «أحسننت يا عبد العزيز وإنما فرّ بشر أن يجيبك في هذه المسألة»⁶² ولما سأل الكناني بشرا عن مكان خلق القرآن حاد عن الإجابة، واجتلب كلاما غير الذي سئل عنه، فقال: "أنا أقول إنه مخلوق وأنه خلقه كما خلق الأشياء كلّها"⁶³. وقد تعنت في ذلك ورفض الإجابة عن السؤال مدّعيًا أنّ هذا هو الجواب وليس هناك غيره، رغم إصرار الكناني على الجواب بشهادة المأمون.

4. الجواب الجدلي: هو جواب يعطيه المجيب مع معرفته ببطلانه⁶⁴، ولا يقصد به إظهار الحق، إنّما التعنت. ومثال ذلك الجواب الذي ساقه بشر للكنان حول علم الله تعالى، فأجاب بشر أنه لا يجهل، ولما أبى عليه الكناني قال: «قد أجبتّه عن معنى العلم أنه لا يجهل»⁶⁵. فلم يكن القصد من جواب بشر البحث عن الحقيقة إنّما الجدل فقط وإبطال مقالة خصمه حتى ولو كان على صواب.

5. **تأويل قول الخصم:** ويكون بتأويل أحد المناظرين كلام خصمه على غير النحو اللائق، لإثبات دعواه، وقد وقع بشر في ذلك عندما قال **الكنائي:** لا بدّ أن تقول إنّه خلق بالفعل الذي كان عن القدرة، وليس الفعل هو القدرة، لأنّ القدرة صفة من صفات الله ولا يقال لصفات الله هي الله ولا هي غير الله، فقال **بشر:** ويلزمك أن تقول إنّه لم يزل يفعل ويخلق وإذا قلت ذلك تبيّننا أنّ المخلوق لم يزل مع الخالق⁶⁶. فردّ عليه **الكنائي:** إنّي لم أقل هذا، وليس لك أن تحكي عني ما لم أقل⁶⁷.
6. **تدخل الحضور في مجريات المناظرة:** من الأخطاء التي وقعت في مناظرة الحيدة تدخل **محمد بن الجهم** في مجريات المناظرة، فبعد عن سكت **بشر** وبطل ادعائه تدخل، وسأل **الكنائي** دون أن يطلب الإذن من الحكم أو المتناظرين⁶⁸.
7. **منع ما سبق إثباته:** وتكون بمحاولة أحد المتناظران أن يبطل ما سبق أن أثبته خصمه، وانتهت المناظرة فيه، وهي الحيلة التي لجأ إليها **بشر** لكي يغطي فشله في مناظرة **الكنائي**، فبعد أن شرح هذا الأخير للحضور كيف يتعبد الناس المولى تعالى بمعرفة الموصل والمفصل من القرآن الكريم، تعنّت **بشر** ورفض الحقّ على وضوحه، وأعاد سؤاله: وما يضرّ الخلق ألا يعرفوا المفصل والموصل؟⁶⁹.
8. **التمويه:** وهي محاولة المناظر إخفاء حقيقة شيء ما بجعله مشابها لآخر. وقد سعى **بشر** إلى ذلك عندما أراد أن يجعل سكوت **الكنائي** عن الإجابة عن صفة العلم الإلهي، كسكوته هو عن الإقرار بأنّ الله تعالى علما، ويظهر ذلك في قول **بشر:** واحدة بواحدة يا أمير المؤمنين، سألتني عبد العزيز أن أقر أنّ الله علما فلم أجبه وسألته عما هو علم الله فلم يجبني، فقد استوينا في الحيدة⁷⁰. والحقيقة أنّهما ليسا في سكوتها سواء، لأنّ **بشر** سكت عما أقره تعالى لنفسه بنص التنزيل، وإنما سكت مكابرة، أمّا **الكنائي** فقد سكت عما أمره المولى تعالى بنص التنزيل أن يسكت عنه.
9. **التشبيه (التغليب في المعنى):** وهي الحجّة التي يسعى من خلالها صاحبها إلى إظهار شيء بصفة، غير صفته على أساس شبهة. ومثل ذلك سعى **بشر** إلى الاستدلال على خلق القرآن بقوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾، مدّعيًا أنّ جعل

وردت في هذه الآية بمعنى (خلق) رغم أنها وردت بمعنى (صير)⁷¹، وسبب ادعائه هذا أنه جعل وردت في القرآن بمعنى (خلق) مما دفعه إلى التشبيه على الناس في الآيات التي وردت فيه اللفظة بمعنى (صير). ومن حجج التشبيه التي سعى بشر إلى المغالطة بها، لما ادعى أن الكناني قلل من قيمة القرآن وحط من قدره عندما قسمه إلى موصل ومفصل، والموصل هو الملفق غير الصحيح، حيث قال: «قد وضع من شأن القرآن... إذ كان الموصل عندهم جميعا هو الملتصق الذي وصل بعضه ببعض... فسمى عبد العزيز كتاب الله اسما ناقصا ذميما»⁷². فقد قام بشر بقياس مغالط على الموصل والمفصل المذكور في القرآن بنص التنزيل، من لغات العرب، علّه يشبه على المأمون والحضور.

10. التلاعب العاطفي: يسعى أحد المتناظرين من خلال هذه الاستراتيجية إلى صرف الحضور والحكم عن القضية المحورية، عن طريق استثارة عواطفهم فيقوم المناظر بمخاطبة عواطفهم، لجعلهم يعتقدون لصحة رأيه⁷³، ومثل ذلك ما قام به بشر لما ذم الكناني الجاهلين باللغة، حيث قال: «يا أمير المؤمنين يذمنا ويكفرنا ويقول إننا نحرف القرآن عن مواضعه»⁷⁴، فحاول استثارة عواطف المأمون بدعوى أن الكناني يكفرهم ويذمهم، خاصة أن المأمون أخواله من العجم.

11. المراوغة: وهي حجة يسعى من خلالها أحد المتناظرين مراوغة خصمه بإثارة إشكالية تبعده عن الإشكالية الجوهرية المتنازع عليها، ومثل ذلك ما قام به بشر، لما أقام عليه الكناني الحجة أن القرآن منه قول مفصل، ومنه قول موصل وبشر جاهل لذلك وجاهل بلغات العرب، فادعى بشر أن الله تعالى لم يطالب العجم بتعلم لغة العرب، حيث قال: «أو على الخلق أن يتعلموا لغات العرب؟ ما تعبد الله الخلق بهذا ولا أمرنا به، وكل إنسان يتكلم بما علمه الله، وما كلف الله فوق طاقتهم ولا طالب أولاد العجم بلغة العرب»⁷⁵. وهي مسألة أثارها بشر لا علاقة لها بما كانا فيه فالكناني كان يتحدث عن يدعي علم القرآن ويؤوله بغير علم، ويقول على الله

بجهالة، ويظلّ الناس ويفتنهم في دينهم، مدعياً العلم والفهم، وهو جاهل بالقرآن جاهل بلغات العرب.

12. التخويف: وتقوم على إرهاب وتخويف الخصم لإضعاف حجّته، وفرض الرأي بالقوة⁷⁶، قبل المناظرة و بعدها كان أتباع بشر يحاولون إرهاب الكناني وتخويفه من العقاب، أمّا بشر، فقد كان يذكرّ الكناني مرارا وتكرارا بما سيلحقه من عذاب، كي يخيفه ويربكه عن المناظرة.

13. التعميم المتسرع: وهي تبرير نتيجة عامة اعتمادا على عيّنات غير كافية فيحاول أحد المناظرين أن يوهّم بصدق قضيتّه عن طريق جعل بعض العيّنات غير الكافية دليلا على صدق دعواه بعد تعميمها وجعلها قانونا عاما⁷⁷، كما حاول بشر أن يثبت أنّ (جعل) تأتي دائما بمعنى (خلق).

14. السخرية: عادة ما تقوم هذه الاستراتيجية على السخرية والاستهزاء من الخصم، بدل التذليل والحجاج⁷⁸، بيد أنّ الكناني إلى جانب اعتماده على الحجج والبراهين، كان يميل إلى الاستهزاء ببشر في كثير من الأحيان، وهي استراتيجية تقابل استراتيجية التخويف والترهيب التي كان يميل إليها بشر.

15. الاحتجاج بالسلطة: لا يقصد هنا السلطة كنظام سياسي أو ما هو متعارف عليه، فيما يرتبط بالحكم، إنّما يقصد به "أن تكون للشخصية المتكلمة - مرسل الخطاب- قدم راسخة وباع طويل في المجال الذي يتحدث فيه"⁷⁹. إذ يستمد هذا النمط من الحجج فعاليته من مكانة المناظر في العلم المتناظر حوله، ونجد أنّ الكناني ركّز كثيرا على هذه الاستراتيجية ففي معرض مناظرته مع بشر أكثر من القدح في جهل هذا الأخير باللّغة العربية ومداخلها اللّغوية، والإشارة ضمنا على قدرته في هذا المجال وتفوقه، محاولا أن يكسب نفسه نوعا من السلطة على الخطاب وعلى الموضوع المتناظر عليه، خاصة وأنّ المناظرة كانت تجعل من المداخل اللّغوية سبيلا للاستدلال.

16. **التغليب من جهة اللفظ:** وهي حيلة يسعى من خلالها أحد المتناظرين إلى تغليب الخصم والحضور، بجعل اللفظ يدل على غير المعنى الذي وضع لأجله أصلاً⁸⁰. وهي الحيلة التي سعى من خلالها بشر بأن يشبهه على الحضور بأن يجعل لفظ (جعل) يدل على معنى الخلق. حيث قال بشر: «هل في الخلق أحد يشك في هذا أو يخالف عليه، إن معنى (جعلناه) خلقناه» سورة الزخرف، الآية 03.

17. **القياس الجدلي:** ويقصد به القياس الذي يستمد شرعيته من شهرة مقدماته وليس من صدقها، "إنه القياس الذي يستمد شرعيته من مقدمات ذاتعة وجدليته نابعة من شهرة مادته لا من خصوصيته في صورته"⁸¹.

الهوامش:

1- جاء في شذرات الذهب: عبد العزيز بن يحيى الكنانى المكي سمع عن سفيان بن عيينة وناظر بشرا بن غياث المريسي، في مجلس المأمون مناظرة عجيبة غريبة فانقطع بشر وظهر عبد العزيز ومناظرتهم منشورة مسطورة وعبد العزيز هو صاحب كتاب الحيدة وهو معدود في أصحاب الشافعي.

2- جاء في شذرات الذهب: بشر المريسي الفقيه المتكلم، وكان داعية للقول بخلق القرآن هلك في آخر سنة مائتين وثمانية عشر، ولم يشيعه أحد من العلماء وحكم بكفره طائفة من الأئمة، وروى عن حماد بن سلمة وعاش نيفا وسبعين سنة قاله في العبر، وقال ابن الأهدل كان مرجئا داعية الإرجاء وإلية تنسب طائفة المريسية المرجئة، كان أبوه يهوديا صباغا في الكوفة وكان يناظر الشافعي، وهو لا يعرف النحو فيلحن لحنا فاحشا.

3- أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج 01، ج 02 المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بدون طبعة، بيروت، بدون سنة، ص 95.

4- ينظر المرجع نفسه، ص 44.

5- ينظر رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد، ط 01، بنغازي، 2010، ص 19.

6- الحيدة، ص 12.

7- محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية و المنطقية واللسانية، ط 01 دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2005، ص 32.

- 8- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط01، 2008، ص131.
- 9- ينظر أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ط01، الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء، 2007 ص81.
- 10- الحيدة، ص 15.
- 11- المرجع نفسه، ص 16.
- 12- المرجع نفسه، ص 16.
- 13- المرجع نفسه، ص 16.
- 14- المرجع نفسه، ص 12.
- 15- المرجع نفسه، ص 73.
- 16- محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص 30.
- 17- الحيدة، ص 18.
- 18- ينظر المرجع نفسه، ص 32/31.
- 19- ينظر المرجع نفسه، ص 36.
- 20- محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص 32.
- 21- الحيدة، ص 26.
- 22- المرجع نفسه، ص 30.
- 23- ينظر محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص 25.
- 24- الحيدة، ص 37.
- 25- المرجع نفسه، ص 41.
- 26- المرجع نفسه، ص 46.
- 27- ينظر علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات) ط01، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ص 301.
- 28- الحيدة، ص 71.
- 29- المرجع نفسه، ص 47.
- 30- ينظر المرجع نفسه، ص 49.
- 31- ينظر المرجع نفسه، ص 50.
- 32- ينظر المرجع نفسه، ص 49.
- 33- المرجع نفسه، ص 59.
- 34- المرجع نفسه، ص 60.

- 35- المرجع نفسه، ص 61.
- 36- ينظر المرجع نفسه، ص 64.
- 37- عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط02، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص 98.
- 38- الحيدة، ص 67
- 39- ينظر المرجع نفسه، ص 66.
- 40- محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 132/131.
- 41- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2008، ص 168.
- 42- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج02، منشورات كليّة الآداب منوبة، تونس، 2001، ص 558.
- 43- ينظر محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 136.
- 44- المرجع نفسه، ص 487.
- 45- الحيدة، ص 73.
- 46- المرجع نفسه، ص 74.
- 47- المرجع نفسه، ص 76.
- 48- المرجع نفسه، ص 76.
- 49- المرجع نفسه، ص 76.
- 50- المرجع نفسه، ص 77.
- 51- ينظر الحيدة، ص 80/79.
- 52- ينظر المرجع نفسه، ص 80.
- 53- ينظر عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ص 452.
- 54- الحيدة، ص 19.
- 55- ينظر عبد الرحمن حسن، حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ص 454.
- 56- الحيدة، ص 19.
- 57- المرجع نفسه، ص 29.
- 58- المرجع نفسه، ص 31.
- 59- المرجع نفسه، ص 32.

- 60- الحيدة، ص 33.
- 61- المرجع نفسه، ص 33.
- 62- المرجع نفسه، ص 36.
- 63- المرجع نفسه، ص 75.
- 64- ينظر عبد الرحمن حسن، حنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ص 454.
- 65- الحيدة، ص 34.
- 66- المرجع نفسه، ص 79.
- 67- المرجع نفسه، ص 79.
- 68- ينظر المرجع نفسه، ص 72.
- 69- ينظر المرجع نفسه، ص 67.
- 70- ينظر المرجع نفسه، ص 43.
- 71- ينظر المرجع نفسه، ص 49.
- 72- المرجع نفسه، ص 64.
- 73- ينظر رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، ص 28.
- 74- الحيدة، ص 63.
- 75- المرجع نفسه، ص 66.
- 76- ينظر رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، ص 32.
- 77- ينظر المرجع نفسه، ص 41.
- 78- ينظر المرجع نفسه، ص 30.
- 79- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 198.
- 80- ينظر حمو النقاري، منطق الكلام من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي، دار الأمان، ط01، الرباط، 2005، ص 203.
- 81- حمو النقاري، منطق الكلام من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي ص 299.